«خيول» ناصر جبران
عودة المعجزات...، ولكن...

فضاء القراءة

في إحدى قصائده، يتساءل الشاعر اللبناني خليل حاوي:

ـ «... أترى يولد من حبّي لأطفالي/ وحبّي للحياة/ فارس يمتشق البرق على الغول/ على التنين، ماذا هل تعود المعجزات؟/ بدوي ضرب القيصر بالفرس/ وطفل ناصري وحفاة/ روَّضوا الوحش بروما، سحبوا/ الأنياب من فك الطغاة/ رب ماذا/ رب ماذا هل تعود المعجزات؟».

يتساءل حاوي، وفي تساؤله توقُّع وأمل ودعاء. وبعدما كبر أطفال حاوي في مناخ الحب، يرى ناصر جبران أنهم غدوا عمالقة، وامتطوا الخيول فرساناً يمتشقون البرق ليروِّضوا «الوحش/ ذئاب الليل وليسحبوا الأنياب من فك الطغاة/ الشيطان/ يقودهم بدوي هو نبي الفقراء». ولكن جبران يضع رؤيته في إطار سؤال، فيقول: ماذا لو تركوا الخيل تمضي؟ يفيد هذا السؤال أن المعجزة تحقَّقت، ولكن.. يثير السؤال القلق والمزيد من الأسئلة، ويدفع إلى قراءة.

في هذا الجو من الرغبة في التعرف إلى الفرسان الذين أعادوا المعجزات وحققوا حلم الشاعر الأوَّل، وأثاروا قلق الشاعر الثاني، نقرأ عمل الشاعر الإماراتي ناصر جبران: «ماذا لو تركوا الخيل تمضي؟»[١].

---

(١) «ماذا لو تركوا الخيل تمضي»، ديوان شعر لناصر جبران (الإمارات)، صدر عن المجلس الثقافي للبنان الجنوبي وهو الأول من إنتاجه.

السُّؤال: الإشارة والموقف

يشير السؤال إلى واقع تُمْنَع الخيل فيه من المضي، ويتخذ الشاعر منه موقفاً. ليس هو الرفض والكشف الفاضح فحسب وإلَّا لقال: «دعوا الخيول تمضي» أو «إنهم يقتلون الخيول».

موقف الشاعر هو، أيضاً، محاسبة وقصد إلى الاقناع من خلال رسم عالم بديل تصله الخيول إن تُركت تمضي.

في صيغة السؤال ما يشير إلى عالمين: العالم موضوع التساؤل والعالم البديل، ومضيُّ الخيول هو الجسر/المعبر. ونتذكر، هنا، جسر خليل حاوي: «يعبرون الجسر خفافاً...» فأي شيء من أشياء الإنسان العربي هي الخيول؟ وإلام يوصل مضيُّها؟.

الخيل، في رؤية الفارس العربي، تمثِّل القوى المتأهِّبة للقتال، صوناً للحمى بكل ما يعنيه، وتحصيلاً للحق أياً يكن سالبه. ومن أجل هذا «تجاع العيال ولا تجاع هي».

يقول الشاعر، في تساؤله: إن هذه القوى تمنع اليوم من المضي إلى هدفها، وتمنعها قوى أخرى، يريد الشاعر لهذه القوى أن ترى ماذا يحدث لو تركت الخيل...

تساؤل الشاعر يشير إلى ملامح عالمه العامة. لكنه يثير أسئلة عديدة منها: إلام ترمز هذه الخيول؟ وأي قوى تقف حائلاً في دربها؟ ولِمَ يحدث هذا؟ وماذا يحدث إن تركت تمضي؟

نعود إلى النَّص نحاول أن نتلمَّس إجابة.

يتَّبع النص أسلوب السرد، يسعى الشاعر، يبحث عن ذاته، بغية تبيُّن هويتها وتحديد مواقفها من مشكلات عالمها، وسُبل تجسيد هذه المواقف، بحيث تُبْعَث حيَّة فاعلة. يرصد الشاعر، في أثناء سعيه، ما يراه، ويقيم حواراً بينه وبين هذا الذي يراه، حوار مع الذات/الداخل ومع أشياء العالم/الخارج.

بنية النص، إذاً، تقوم على حركات متتالية، سرد خطوات الشاعر، وصف

لأشياء العالم: الخارجي والدَّاخلي، خطاب يصوغ رؤية، ثم سرد فوصف.. وقد يختلف تتالي هذه الأساليب، والمهم أننا نلحظ توظيفاً لكل أسلوب يتيح لنا القول: إنَّ علاقة عضوية تقوم بين مختلف الحركات، فنحاول تتبُّع هذه الحركات التي تتخذ أساليب متنوعة.

يبدو أن الشاعر الرَّاحل باحثاً عن هويته.. يمثِّل ضمير الأمَّة الهاجع، يعزم على الرحيل رغم الصعاب التي تبلغ حد السير «على حد السير الراجف»، ولكنه ينتزع الخوف، ويتجاوز شلل الجسد، فيجرّه، ويسير محرِّكاً أعضاء الصمت، راجياً أن ينطق الأخرس من ذاته. إنها رحلة خطرة يمضي إليها الشاعر في سبيل النطق بما يراه من دون خوف.

البحث عن الذات، بغية النطق الجريء بهويتها وموقفها، يبدأ دخولاً إلى الذاكرة، إلى التاريخ، وتكون أولى نتائج هذا الدخول أن يلتقي الراحل بهويته تبحث عنه، تبحث عمن يعلنها، «أبحث عن اسمي.. عني/ وعني يبحث عني..». إنَّها هوية حية تبحث عن خيولها.

تكون الهوية بعيدة عن ذاتها، ولهذا يطول البحث ويتعرَّج الدرب بالرَّاحلة، تعرُّج «وريد القلب»، ولكنه تعرُّج يؤتى نبض الحياة في صفحات صفر كلون التبغ هي صفحات التاريخ. رؤية المستشرقين التي تطل في هذه الصفحات تزيِّف التاريخ والهوية، وهنا نفهم معنى بحث الهوية عمن يحقِّقها، إنها غير مصانة واقعاً، وغير مصانة تاريخاً، إنها تواجه غزوين، غزو يسلبها حاضراً وغزو يزيِّفها ويشوِّه حقيقيتها تاريخاً، والغزوان يريان المستقبل أشد قتامة.

تتوقَّف الراحلة، ترى ذات الشاعر إلى هذا الواقع، يدور حوار داخلي، تبدو من خلاله الصفحات الصفراء أفاعي تسكن الصدر، الأفاعي الملساء ذات الأنياب المشرعة، تدفع إلى انتهاء الحوار بموقف يتركَّز في كلمة تقرِّر بشكل مباشر، وهنا يكون للتقريرية وظيفة فنِّية في سياق البناء العام، تكون التقريرية، شاعرية حينما تؤدِّي وظيفتها الفنية، إذ لا بدَّ من موقف مركَّز إزاء غازٍ ذي وجهين: استعماري ومالك منجزات حضارية في آن، يرفض الباحث عن هويته الوجه الاستعماري ويقاومه، ويرتضي المنجز الحضاري بوصفه دواء: «لا ضير

أن ترد نبع الأعداء/ فطريح الدَّاء/ لا يحفل/ ما نوع البلسم»، لا يخلو التعبير من إيقاع خارجي، ولكنه لا ينتظم رتيباً، وهذا نلاحظه في معظم مقاطع النص. وعندما يصل الشاعر إلى تحديد موقف تتولد فيه قوة تدفعه كالسيل، انتفى خوف البداية وعجزها وشللها وصمتها، وتحوَّل إلى اندفاع كالسيل الجارف. وهنا أهمية التقاط الهوية وتركيز الموقف، يندفع كشلال يجرف الطمي، وكنجم يكشف الزيف ويحرق الركام، ويعلن أن حكمه لا يشمل كل التاريخ، وإنما تلك الصفحات الصفر المسمومة كالكفن.

الغازي ينسج الكفن، والشاعر/النجم الحارق، يحرق هذا الكفن، ويتخذ موقفاً من الغازي، ويقرِّر مواصلة البحث في مكان آخر، إذ إنَّ الهوية حية ولم يتمكن الغازي من دفنها. في الجانب الآخر، يجد التاريخ مغشوشاً والربع مكتوباً بأمر السلطان، والربع الآخر منقوش حسب الوجدان. وتشدُّه دائرة الضوء التي تتسع من التاريخ المنقوش، فيلتقط الايجابي/ وميض النور، ويواصل الرحيل على ضوء هذا الوميض بعدما أحرق كفن الغزاة. وتكبر دائرة الضوء، ويركن إلى الأمل، وتتوالى إشارات الوصول إلى حقيقة الهوية، ويتم اللقاء كأن الطبيعة تشارك في إحياء هذا اللقاء بين ذات الشاعر/ ضمير الأمة وحقيقة هويتها، فيشعر الشاعر بالاشراق، وتغرب عن وجهه صفحات التاريخ المظلم، ويتساءل عن جدوى مثل هذه الإيجابيات، وينتهي التساؤل إلى اتخاذ موقف، يأخذ شكل تركيز حكمة، وهنا يأتي التقرير تالياً للسرد والوصف والحوار الداخلي، وكما قلنا فإنَّ هذه الأساليب جميعها تتناوب وتتقاطع أحياناً، لتكوِّن بنية فنية تجسد الرؤية إلى الموضوع المحوري.

يقول الشاعر: «حسناً.. سأتمسَّك بالزخَّة مثل الطفل/ أغسل درني من دون حياء/ فالزَّخة فوق الزَّخة تصبح مجرى..». يلتقط الاشراقات الطيبة، بعدما يؤمن بأن النهر المكوَّن من الزخَّات يهيج حين يسود الظلم، فيطمي دولاً وتنهض فوق ركامها أمم، وتتوالى كل الإشراقات الطيبة «مثل الخيط/ من عهد نبي الخلق/ حتى عهد الصمت العربي». يعيد للإشراقات إطلالتها من عهد النبيّ حتى عهدنا الذي رحنا فيه نبحث عن هوية، ويطل الشاعر من رحلته وذاته حققت هويتها

واتخذت موقفاً، يطل واضح الرؤية مؤمناً بتكوين الزخات للنهر المدمِّر المحيي في آن، ومؤمناً بتكوين الوميض للإشراقات، يطل ليرى إلى زخَّةٍ في زمن الجدب، وإلى إشراقةٍ في زمن العتمة، وإلى صهيل خيل في زمن الصمت، يطل ليرى إلى حرب خامسة تدور على أرض لبنان، وهكذا يضع الشاعر هذه الحرب في مكانها من سياق التاريخ العربي.

يضع القسم الأول، من النَّص الشعري، وهو القسم الذي ينتهي إلى تحديد ذات الشاعر في الاشراقات الطيبة في التاريخ العربي، وفي النهر المطهِّر الذي يطمي دولاً ظالمة/ ويحيي على ركامها أمَّةً ناهضة، يضع هذا القسم الحرب الخامسة في سياقها التاريخي، بوصفها إحدى هذه الاشراقات وإحدى زخَّات النهر المطهِّر، وبعد أن يفعل ذلك يرى إلى هذه الحرب رؤية تكشف مختلف عناصرها وجوانبها.

يبدأالصراع عندما تمسك ذئاب الليل أحد طرفي الصراع، وتدفعه إلى خوض حرب ترمي إلى القضاء على نبي الفقراء. ذئاب الليل تمثل الغازي الذي عمل على نسج كفن الهوية. وهو هنا يواصل نسجه للكفن، وهكذا يبدو تواصل بين قسمي النص واستمرار للصراع. ويكون الطرف الذي أمسكته ذئاب الليل أداة تستخدم في مرحلة ما، لتمنع نهوض أمَّة قويَّة ويبدو واضحاً صنيع الغازي آنفاً، إذ هيَّأ هذا الطرف لأداء مثل هذا الدور، فهو في الوقت الذي يمارس فيه دوره المنفِّذ مشروع الغازي، يحافظ على امتيازاته، إذ إنَّ هناك خللاً في العلاقة بينه وبين شقيقه الطرف الآخر. من هنا نفهم وقوف القوى الغازية ضد إقامة وطن لجميع أبنائه في لبنان، فالخلل ينبغي أن يبقى كي يبقى طرف جاهزاً ليكون أداة تخدم ما يريده نسَّاجو الكفن وتحافظ على امتيازاتها في آن. يقول الشاعر محدِّداً العلاقة بين الطرفين: «الأول يزرع والآخر يجني/ الأول يعطي والآخر يسرق/ الأول يكشف أستار الليل/ والآخر يصبغ وجه الشمس».

وقد دفعت هذه العلاقة الطَّرف الرَّاغب في الجنى... والعامل على صبغ وجه الشمس، للركون إلى ذئاب الليل التي راحت تحرِّكه لبدء صراع يحقِّق مصلحة مشتركة لكليهما وهي القضاء على نبي الفقراء وعلى الطفل الراغب في

نيل نصيبه من جناه، والعامل على كشف أستار الليل. طرفان إذاً هما: تحالف يضم ذئاب الليل والصابغ لوجه الشمس، وتحالف آخر يضم نبي الفقراء والكاشف أستار الليل. تحالف الذئاب يجني ويسرق وينسج الكفن، وينشر العتمة، وتحالف نبي الفقراء يزرع ويعطي ويحرق الكفن ويكشف أستار الليل.

دار الصراع على أرض واعدة ناطقة، وهنا يأخذ الوصف موقعه الفني، إذ إنه يرينا حاضر هذه الأرض الواعد بمستقبل مشرق، فتبدو لنا فداحة ما يحصل من تدمير لهذه الأرض بحاضرها ومستقبلها. وبدأت حرب التدمير عندما احتضنت هذه الأرض «نبيَّ الفقراء»، رائد التغيير، «المهدور دمه من كل الفخوذ العربية». احتضنته وأصحابه من الصعاليك المنسيين، وكان ممكناً أن يثمر هذا الاحتضان الكثير، فليس سهلاً أن يحدث زواج بين نبي الفقراء وعروس شرقية ذات عراقة تمتد إلى الفينيقيين، وذات غنى يغسل النهدين بمياه نهر الليطاني، تمَّ الزواج عندما آوت العروس النبي، وأحبَّته حين امتنعت كل الأسوار عليه، وحين علت أصوات الكلاب المطاردة.

نبي الفقراء والبنت الشرقية عروسه التي لا تزال في أول دخلتها، إشراقة جديدة من إشراقات التاريخ العربي تعد بتأسيس عالم جديد يُشرِّع للضوء نوافذه وللأقمار دائرته.. ولكن ذئاب الليل/ الأنياب الجديدة للغازي، العامل أبداً على نسج كفن الهوية الناهضة، كانت بالمرصاد. فتحرَّكت عبر أحد الأنياب، ويسمِّيه الشاعر «الشيطان» أي إسرائيل، وعبر ناب آخر محلِّي هو الطرف الصابغ وجه الشمس، كناية عن عيشه خارج الزمن والتطور التاريخي. تحركت الذئاب وبدأ الصراع. وعندما كاد نبيُّ الفقراء ينتصر أشرع الصَّابغ وجه الشمس خدر العروس إلى الشيطان، دخل الشيطان خدر العروس، وهدفه نبي الفقراء والطفل العامل على كشف أستار الليل.. وصرخت العروس الشرقية التي تسمو على كل بنات الحيّ العربي: من يقاتل ذئاب الليل وعلى رأسها الشيطان؟ ولكن وامعتصماه عصرنا لامست آذاناً ولم تلامس هوية، وكيف يركبون وليس من خيول؟ وفي زمن الآذان نهض الطفل، ابن العروس الشرقية، كاشف أستار الليل، نهض وامتطى الخيول الأصيلة وامتشق السيف، وتصدَّى للشيطان يقاتله.

قاوم الطفل، كاشف أستار الليل، وغدا عملاقاً. ولنلاحظ الولادة التاريخية للعملاق المقاوم ليس من أسطورة خارج التاريخ هنا، وإنَّما من عمل خارق يقرب من الأسطورة في عظمته، لكن شقيق العملاق، وهو حليف ذئاب الليل التي يرأسها الشيطان، غدر بشقيقه، وانصرف العملاق يردُّ الطعنات الغادرة، وجرى نهر الدم صارخاً: «والعملاق تسمَّر بالساح بمفرده/ يصارع عكس ولادته/ والشيطان...» وقف «نبيُّ الفقراء» يدافع. وجاء الصوت من أرض الآذان، أرض الصمت، جاء لا ليلبي صرخة العروس الشرقية، وإنما ليدعو إلى عدم تدنيس قداسة جوِّه الراكد...

وهنا يصل الشاعر إلى حالة فريدة، تغدو ذاته، كأنها الطير المذبوح، وتغرِّد. تتعلق بأعنة خيل نبي الفقراء والعملاق وتغرِّد، تريد أن تسمع جماهير الشعب المقهور، وتنهض ليغدو كل منهما عملاقاً. البوح، هنا، أو التغريد يأخذ موقعه الشعري، إنه صوت يوقظ، وتغريد يكشف، ولكن هذه الخيل الماضية إلى تجسيد الهوية تعكر صفو الجميع. فلا تراها العيون المفقوأة على حقيقتها، فيرسل الجميع كلاب الصيد وراء هذه الخيول، ويشرع الحراس خناجرهم، ويبدو الموقف صعباً، ذئاب الليل والشيطان وصابغ الشمس مازالوا يواجهون خيول نبي الفقراء والعملاق كاشف أستار الليل، وهذه الكلاب والخناجر تريد للخيل أن تقف، فمواجهة الغازي غدت حاسمة، والغازي يخاف إن تتالت الزخات، يخاف من مضي الخيول، وبخاصة أنه «ما كان ما بين غُرَّتها ووجه الشمس مسافة إلَّا شبراً أو شبرين». وعندما تطول وجه الشمس لا يعود أحد قادراً على صبغه وتزييف الحقيقة، ولا تعود ذئاب الليل قادرةً على الغدر، ولا تبقى ظلمة لينشط فيها الشيطان. امتلاك وجه الشمس مخيف، مخيف للجميع، وهذا ما جعل الجميع يتآزرون. فكرت الخيول وكبت...

وهنا يرتسم السؤال بإلحاح: ماذا لو تركوا هذه الخيول تمضي؟

ويجيب الشاعر: إن تركت هذه الخيول تمضي، لملكت وجه الشمس في معراج فريد...

دور كلاب الصيد والحراس، وهو الدور المسهم في جعل الخيل تكرُّ

وتكبو، يشكِّل قسماً ثالثاً. ويليه قسم رابع تعود فيه ذات الشاعر إلى ميدان الصراع لتقيم حواراً مع العروس الشرقية وطفلها العملاق وكاشف أستار الليل، ومع الصامتين، ومع نبي الفقراء، ويوصل الحوار إلى إعلان ميلاد الإنسان صانع الثورة، يعلن هذا في جو من الزغردة يناقض جو بدء الرحلة.

في البداية، مضى على حد السيف يقلِّب جسداً مشلولاً صامتاً خائفاً باحثاً.. وفي الختام، صار إلى مضيٍّ تواكبه الزغردة، مضى عملاق يمتطي خيولاً وجهتها وجه الشمس، وهدفها ميلاد الإنسان الذي لا يستطيع أحد صبغ شمسه..

يبدو كأن خيول ناصر جبران هي «تموز» خليل حاوي الذي ركن إليه بعد رحيل طويل بحثاً عن ميلاد طويل وخلاص، يقول حاوي: «يا إله الخصب، يا بعلاً/ يفضُّ التراب العاقر/ يا شمس الحصيد.. نجِّنا، انجِ عروق الأرض من عقم مبيد».

خليل حاوي ينادي قوة تفضُّ وتنجي. لكنه انتحر على أثر دخول الشيطان أرض لبنان، ولم يطل الزمن حتى وجدت العروس الشرقية/ التربة تموزها/ نبي الفقراء، وأنجبا العملاق كاشف أستار الليل، وامتطى النبيّ والعملاق الخيول العربية صوب وجه الشمس ليقضيا على ذئاب الليل والشيطان، وعلى حليفهما صابغ وجه الشمس. ولكن الخيول كرَّت وكبت.. لم تتركها القوى المتحالفة تمضي، وهذا لا يعني نهايتها، وإنما يعني أن الكبوة عابرة طالما هناك عملاق تلده العروس الشرقية ونبيّ الفقراء، وهذه رؤية تجسد الواقع التاريخي المعيش، وهي قريبة أيضاً من الرؤية الأسطورية، لتموز العائد إلى الحياة دوماً، أو كما يقول خليل حاوي: «تموز ترتيلة للشمس والأفق/ تموز ينمو ويحيا، وهو يحتضر/ تموز معجزة تأتي مع الشفق».

إنَّ لدينا معجزة واقعية وليست أسطورية، إنَّها مقاومة الاحتلال الإسرائيلي وعملائه. هذا ما يقوله ناصر جبران عندما مضى باحثاً «كالشفق المغسول بلون الدم».